

# خيرى الذهبي: أكتب في رواياتي حكاية دمشق

## الرواية هي سؤال الهوية وتاريخ المهمشين والمقموعين.. وعلى رأسهم المرأة

الروائية التي جاء أحدثها بعنوان "المكتبة السريّة والجنرال" ليُقدّم فيها رؤيته لما حدث في وطنه سوريا خلال السنوات العشر الأخيرة. تلك المسيرة الروائية الثرية بما طرحه من إشكاليات وقضايا على المستوى الفكري والفني كانت محوراً لهذا الحوار مع الذهبي في "الجديد" لاسيّما بعد أن نال مؤخراً جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات عن كتابه "من دمشق إلى حيفا" 300 يوم في الأسر الإسرائيلي الذي كتبه بعد فوات ما يقرب من نصف قرن على تجربته في السجون الإسرائيلية، والذي يُقدّم من خلاله صورة للفكر الإسرائيلي أثناء الحرب الحاسمة بين العرب وإسرائيل؛ حرب أكتوبر/ تشرين الأول.

منذ روايته الأولى "ملكوت البسطاء" التي نُشرت في السبعينات وحتى اللحظة الراهنة، يُقدّم الذهبي عبر أعماله الروائية فضلاً عن الأعمال الدرامية البارزة التي كتب لها السيناريو، بانوراما لبلده سوريا وتحوّلاتها ومُشكلاتها المستعصية، ورغم رفضه المستمر والمتكرّر من أن تُوصف رواياته بأنها "تاريخية"، فقد تمكن الذهبي عبر تنقيبه في التاريخ السوري واستيعابه لمعطيات الواقع الراهن من أن يُقدّم حكاية دمشق خلال قرن من الزمان، لاسيّما في ثلاثية "التحوّلات"، وفي خضم الحكاية السوروية يحضر البحث عن الهوية المستلبة والحضارة المنهوبة والسؤال عن الخنوع للاستبداد والارتكان للضعف، تساؤلات عدة قدّمها الذهبي عبر أعماله

ما بين حضارة عريقة ووقائع راهنة دامية يُمكن للعمل السوردي أن يضع تساؤلاته حول إشكالية التحوّلات والتبدّلات، عن أزمة النكوص الحضاري والفكري، تصوير الرواية حينئذ ضميراً يُلهمه سؤال المصير والمال بعدما تشرّع في دراسة وفحص التاريخ بغية استنطاقه عن المآلات الراهنة وسؤاله عن آفاق مستقبل غائم، تستطيع الرواية أن تُشكّل مشروعاً فكرياً متكامل الأركان لاسيّما حينما يمتلك كاتبها ذلك الوعي الفكري والفكري، وتلك التجربة الإبداعية الراسخة، وهو ما استطاع الروائي السوري خيرى الذهبي تحقيقه عبر رحلة روائية امتدت لما يقرب من نصف قرن.



حنان عقيل  
كاتبة مصرية

الجديد: تحمل العديد من أعمالك مماً وسؤالاً حول علاقة المثقف والثقافة بالسلطة، في "المكتبة السريّة والجنرال" تُبنى الحبكة حول محاولات السُلطة استناب الذكرة والثقافة الأصيلة للشعب، وفي "صوت ياسين" يأتي البطل المُثقف مشتتاً بين الإخلاء لمبادته أو الاستجابة للسلطة، وفي "ليال عربية" هناك المثقف المنزول والمهزوم.. كيف تشكل لديك هذا الهم؟

خيرى الذهبي: المثقف لا نية لديه مطلقاً إلا أن يكون مرآة لشعبه وهموم شعبه، نجد ذلك جلياً في كتابات الكاتب الأوروبيين واللاتينيين والسوفييت... إلخ، فالمنح العام الذي يعيش فيه الكاتب هو الذي يحدد قضاياها الملحة والمصرية في الكتابة، في "بلدان الموز العربية" أي شخص يفكر أكثر مما ينبغي خارج إطار كلمة "نعم" سيصطدم بقوة بجدار هيمنة الدولة الشمولية، سواء كان أستاذ جامعة أو عالماً أو طبيباً أو لاعب كرة قدم، فما بالك بمثقف يقرأ معطيات التاريخ ويحلل الواقع ويبحث في آليات إنقاذ شعبه مما وقع فيه، الكاتب بشكل أو باخر شاهد على عصره، ينقل وجهة نظره لتصبح وجهة نظر جمعية، وليست فردية، لذلك لا يمكن أن يكون الكاتب منفصلاً عن الأمانة الأولية التي يصاب بها وهي وعي المثقف وعجزه أمام السلطة، لاحظ تجارب الكاتب السوفييت وتجارب الكاتب الأميركيين في نفس الفترة التاريخية، سنجد اختلافاً هائلاً في المواضيع والهموم، فحين نرى رواية "المعلم ومارغريتا" لبولغاكوف المترعة بالرمزية ومناهضة القمع والاستبداد، سنرى مسرح آرثر ميلر وكتابات وليم فولكنر الغارقة في الواعية الاجتماعية.

### الحضارة السورية

الجديد: تُرسّخ كتاباتك لتحوّلات وتلك سورية خلال خمسين عاماً لاسيّما في رواية "لوم يكن اسمها فاطمة"، أيضاً ثلاثية التحوّلات: "حسيمة"، "فايض"، "مشام" نجد السؤال الموزق عن تلك الحضارة القديمة التي انزوت وتوقفت عن العطاء... ما الإشكالية الرئيسية براك التي تحكم الأزمة السورية تاريخياً وحتى اللحظة الراهنة؟ كيف يمكن إعادة تلك الحضارة الأصيلة إلى رونقها من جديد؟

لولا روايات كتاب أميركا اللاتينية لما عرف العالم بهوية سكان البلاد الأصليين وقصصهم وأساطيرهم وهمومهم، ولما وصلنا على الأغلب سوى صدى العولمة الأميركية لديهم

خيرى الذهبي: مشكلة سوريا الطبيعية، أو بلاد الشام عموماً، والتي ورنقتها بعد تقسيم ساكس بيكو، ما سميت لاحقاً بالجمهورية السورية، هي أنها كانت ممراً لصراع الأمم التي تعيش في شرقها وغربها وشمالها



### مسيرة روائية ثرية (غرافيك «الجديد»)

على تجربة حرب تشرين، ولكن من دون عنتريات وانشيد تجيشية وقومية، إنها شهادة من الداخل الإسرائيلي الذي يحتل الجولان وفلسطين، على ما جرى في تلك الحرب الحاسمة بين العرب وإسرائيل، هناك كان الواقع مختلفاً، حيث نبض الحرب يختلف عن عايش الحرب في دمشق أو القاهرة أو باقي البلدان العربية، دون أناشيد حماسية وخطب رنانة وأكاذيب الإذاعات العربية.

هناك كُنّا كاسرى نرى لأول مرة ما كنا نجهله عن "دولة إسرائيل" كنا نعتقد كما علمونا في المدارس والإعلام بأن اليهود كانوا شيطانية قائمة من الفضاء، وإذا بنا فجأة وجهاً لوجه مع الأعداء في الأسر، تعرفنا عليهم وعلى قسوتهم في التعامل مع العرب والأسرى عموماً، ولكننا شاهدنا تنظيهم وعرفت حينها سبب هزيمتنا وسبب انتصارهم علينا، إن أردنا أن نستمر في الكذب على أنفسنا وعلى الأمة فيجب علينا معرفة ذلك المحتل لأرضنا عن قرب، ونحدد نقاط قوته، ونعرّض ديمقراطيتنا التي ستمحننا يوماً ما القدرة على الوقوف واستعادة ما فاتنا.

هناك في معتقلات حيفا ومجدو واللد، شاهدت الأسرى السوريين والمصريين واللبنانيين والفلسطينيين، وتعرفنا على اليهود العرب وأسباب تخليهم عن بلدانهم ولجوئهم إلى إسرائيل، تعرفنا على فكرة التخطيط التي اشتغل عليها الإسرائيليون، وعلى مفكرهم السياسيين وعلى سؤالهم الملح الدائم: كيف ترون دولة إسرائيل، وما هي مشاريعها تجاهها.

اليوميات داخل المعتقلات الإسرائيلية مترعة بالتفاصيل اليومية التي تعكس كيف كنا نفكر، وربما ما نزال، وبين كيف كانوا هم يفكرون، وغالباً ما يزالون.. إن الصراع إذن هو صراع الآليات التفكير بالدرجة الأولى.

الموضوعات في الصفحات 11، 12، 13  
تنشر بالاتفاق مع "الجديد" الشهرية  
الثقافية اللندنية والنص كاملاً على  
الموقع الإلكتروني

كُتّب أميركا العظماء مثل وليم فولكنر وسالانجر، حاولوا إضفاء صفة إنسانية على بلادهم، صفة تنبض بالحياة بعيداً عن صورة الكولونيالية والعولمة الحديثة، وهنا تكمن أهمية الروائي، الذي يقطع مع المؤرخ في تلك الصفة التي ذكرتها، أي كتابة التاريخ البديل عن الرواية الرسمية.

في رواياتي ستجد حكاية دمشق خلال مائة عام، وحتى آخر القرن العشرين، متجسدة في رواية "التحوّلات" مثلاً، وما حصل في سوريا خلال العقد الأخير ستجديده في رواية "المكتبة السريّة والجنرال"، وقبلها ستجد تاريخ البديل لبيروت الحرب الأهلية اللبنانية في رواية "ليال عربية" والتاريخ البديل لمدينة مثل الرقة مثلاً في "المدينة الأخرى"، ستعرفين أكثر عن فترة إبراهيم باشا في رواية "الإصبع السادسة" ولكن من خلال تاريخ شعبي، جميع أعماله هي عالم مواز للعالم الذي نعيشه، روايات تتدفق من نبع الموروث الشعبي الذي ينهل من هوية تقاوم من أجل وجودها.

### يوميات الأسر

الجديد: في كتابك "من دمشق إلى حيفا" 300 يوم في الأسر الإسرائيلي، تسرد يومياتك في التنقل ما بين عدد من السجون الإسرائيلية.. كيف تعاظمت مع تلك الفترة من الأسر آنذاك لاسيّما وأنها كانت بعد فترة من الوهن والجرح الترجسي العربي؟

خيرى الذهبي: أحداث كتاب "300 يوم في إسرائيل" جرت في العام 1974، أي تقريباً منذ 46 عاماً، وبقيت تلك التجربة أسيرة بداخلي، ولم أجعلها تسيطر على تفكيري ومحتواي الإبداعي، ولكن بعد نصف قرن تقريباً من الكتابة والعشرات من الكتب والعمل في الأدب والصحافة والدراما والمحاضرات، قررت أن أستعيد تلك التجربة لتكون الشهادة الأولى من كاتب سوري واعتقد من كاتب عربي،



الهوية هي سؤال الرواية في العالم أجمع، الرواية هي الفن الوحيد الذي يقف في وجه العولمة التي نعيشها اليوم، هي ببساطة محاولة لرواية تاريخ الشعوب وتاريخ البشر للأخر، الرواية المعاصرة هي تاريخ المهزومين، هي ذلك الفن الذي أتاح للمهزوم أن يكتب تاريخاً بديلاً



مستقبلنا بكل وضوح، كفانا تباها بتاريخ أجداننا ولنحاول مرة واحد صناعة مستقبلنا ومواجهة حاضرنا، المدنية التي تفصل الدين عن الدولة وتنتج تلقائياً ديمقراطية تحمي الناس وطموحات الناس، في رواية "لوم يكن اسمها فاطمة" كانت فكرة المدن الميتة التي التي هي عليها بلادنا، المدن الميتة التي مر عليها غزاة الشرق والغرب، لن تنتهي هذه الفكرة إلا بقياسه بلادنا بقوانينها التي تحمي الإنسان أولاً وأخيراً.

### سؤال الهوية

الجديد: تنتشل الرواية العربية منذ عقود بسؤال الهوية، وهو سؤال ملّح لديك أيضاً، كيف يمكن أن نفهم الهوية العربية في الوقت الراهن؟ وإلى أي مدى يُمكن التحكم في طبيعة العلاقة مع الآخر والانتقال من موقف الاستلاب والتبعية العياء التي نخضع لها منذ عقود طويلة؟

خيرى الذهبي: الهوية هي سؤال الرواية في العالم أجمع، الرواية هي الفن الوحيد الذي يقف في وجه العولمة التي نعيشها اليوم، هي ببساطة محاولة للبشر للأخر، الرواية المعاصرة هي تاريخ المهزومين، هي ذلك الفن الذي أتاح للمهزوم أن يكتب تاريخاً بديلاً، حقيقة أخرى، عالماً آخر، أقل وطأة وأقل قسوة من الواقع الذي نعيش فيه، الرواية هي هوية المرأة المهتمشة في العالم، وهي صوت الضعفاء، من هنا تكمن أهمية إيجاد هوية حقيقية للرواية العربية، لولا روايات كتاب أميركا اللاتينية لما عرف العالم بهوية سكان البلاد الأصليين وقصصهم وأساطيرهم وهمومهم، ولما وصلنا على الأغلب سوى صدى العولمة الأميركية لديهم، كتابهم أنفسهم يقاومون في سبيل تثبيت هوية تنجرف يوماً، جوزيه ساراماغو هو مسمار قوي أراد تثبيت هوية أيبيريا على حائط العالم، كذلك كتاب الهند واليابان وتركيا وروسيا وأوروبا، وحتى

وجنوبها، سوريا الطبيعية بلد أنجب حضارات للعالم، أمة كانت من أسهم في تكوين البشرية الأول، ولكن موقعها الجوسياسي جعلها ساحة للصراع بين الفرس والروم والأناضول ومصر، ولعل تجربة دولة تدمر تدلّل الكثير عن الحلم السوري، ولكن الأمة السورية لا تملك من مقومات الأمة/الدولة شيئاً، حودها غير مُدركة مثل مصر أو الجزيرة العربية أو فارس، فيها تعدد عرقي ولغوي وثقافي وديني هائل، لذلك كانت كل تجارب الدول التي نهضت فيها تنتهي على يد الغزاة من جيرانها فيهدمون كل ما بناه السوريون، ولعل الصراع هذا يمتد حتى يومنا، ولا حل لتلك الأزمة إلا بالمواطنة والديمقراطية التي ستحمي حقوق الإنسان السوري وتشجعه على أن يسهم في بناء بلده بعد عقود من التهميش باسم القومية وشعارات لا دخل للسوريين بها، معامرات القادة السياسيين الذين أودت بالبلاد إلى المهول.

في رواية التحوّلات تحدثت عن قيمة أساسية، قيمة فلسفية وفكرية كانت نتاج تأمل وتمحيص في الحال السوري، فنحن في سوريا نعيش في مدن الواحات، أي تلك المدن التي نقضي عمرنا في الارتحال إليها وما هي إلا سراب، مدائن متفرقة متباعدة، ولنتنبه إلى أن اسم الثلاثية الأساسي هو التحوّلات، تلك الكلمة المنحولة من الكلمة الإغريقية "ميثامورفوسيس" أي التناسخات، ببساطة الحضارة العربية المحلية كانت تتناسخ من بعضها البعض دون أي تجديد، أو تقدّم أو ولادة حقيقية جديدة، فأوروبا خرجت من الحضارة الإغريقية ومن الرومانية ومن العصور الوسطى الدينية ودخلت في ثورة حقوق الإنسان ومن ثم الثورة الصناعية والتكنولوجية وانتقلت إلى مرحلة جديدة بظهور أميركا، أما الحضارة العربية فقد دخلت الجمدة العثمانية، وبقيت هناك دون أي حراك مئات السنين، وأنا هنا السوم شعوبنا على سلبيتهم، وعدم إدراكهم لأهمية الزمن والبقاء في خزائن التاريخ. أمّنتا لن نتقدم إلا حينما ننسى أننا أبناء حضارة عريقة ونقف أمام